

(التواصل البيداغوجي في العملية التعليمية-التعلمية)

أ/ بورقدة صغير

قسم علوم التربية

جامعة الجزائر-2-

الملخص

التواصل البيداغوجي في ارتباطه بالعملية التعليمية-التعلمية في ضوء المقاربة بالكفاءات يقتضي مراجعة النظر لتلك العلاقة التي باتت الوضعية أساسها، فإذا كانت هذه المقاربة قد ارتقت في أبعادها إلى الوضعيات التكوينية، فإنه من الأهمية بيان دور المثلث الديداكتيكي في عملية التواصل البيداغوجي ، هذه الأخيرة التي تعتبر ركيزة أساسية في التربية.

كلمات مفتاحية: التواصل البيداغوجي، العملية التعليمية-التعلمية

Résumé

La communication pédagogique, en sa relation avec l'enseignement-apprentissage et sous la lumière de l'approche par compétence, elle nécessite une redéfinition de cette relation qui se base sur la situation.

Si cette approche se développe comme des situations formatives, il est donc essentiel de montrer le rôle du triangle didactique dans la communication pédagogique qui représente un principe fondamental dans les activités éducatives.

تمهيد:

الحياة في طابعها الاجتماعي تحتم سبلا لضمان تحقق أهداف الفرد والجماعة، والمدرسة في صورتها المجتمعية تسعى، عبر النظام التعليمي، إلى إكساب المتعلم كفاءات تمكنه من الاندماج في المجتمع بصورة فاعلة؛ ولأن أزمة المدرسة هي أزمة النظام القائم على التأثير في المتعلم، تتموقع تساؤلات تمس أشكال مزاوله السلطة بالمدرسة، في طرح يتعدى الوسائل والوسائط الديدانتيكية، من خلال التواصل الذي يكفل تأسيس علاقات واختلاق تفاعلات تكون الحجر الأساس لمبدأ ديمقراطية التعليم، وبالتالي تيسير التعلم الذي يسمح بالمشاركة الحقة في بناء المعرفة وتوليدها في وضعيات تكوينية تحدد دور مكوناتها في مجابهة التحديات التي تنتظر الفرد في تفاعلاته مع البيئة؛ لذلك حق التساؤل: ما مفهوم التواصل البيداغوجي؟ وما شروط التواصل السليم؟

أولا: دينامية الجماعة

يتشكل المفهوم من كلمتين، وتعني الأولى منه مذهباً فلسفياً يقابل معنى الآلية أو الميكانيكية، في حين أن الكلمة الثانية يقصد بها زمرة من الأفراد يجمعهم هدف واحد، حيث يطلق لفظ الجماعة على الفرقة أو الزمرة أو الفوج *Groupe*، وفي علم النفس التربوي تتحدد المجموعة بعدد محدد يجمعهم المربي لاكتساب ما يدخل في تغيير السلوك حتى يصبح متكاملًا مع غيره من أفراد الجماعة (صليب، 1982).

وبالتالي يمكن تقديم، لمفهوم دينامية الجماعة، تعريفاً رأيناه يخدم أبعاد التواصل البيداغوجي، حيث يرى عبد الرحمن عيسوي أن المفهوم يشير إلى التغيرات التي تحدث داخل الجماعات الاجتماعية، انطلاقاً من علاقته بمبدأ العلية أو السببية، كما يشير إلى دراسة الوسائل والإجراءات اللازمة لتغيير بناء أو تركيب الجماعة وسلوكها كجماعة (عيسوي، 1974).

ثانياً: ظهور مفهوم دينامية الجماعة

يعود استعمال المفهوم إلى عالم النفس الألماني كورت Kurt ، والذي اعتبر أن دراسة الجماعة الصغيرة مجالا خصبا ناتجا عن تفاعلات مختلفة ، مسجلا جملة من الخصائص التي يراها تطبع كيائها، والتي منها:

- الجماعة منظومة تتكون من عضوي ترتبط أجزاؤها فيما بينها عن طريق التفاعل.
- تتجاوز الجماعة في خصائصها مجموع خصائص أفرادها.
- يتفاعل كل عضو في الجماعة مع بقية الأعضاء ، ومع الجماعة ككل ، ومع العالم الخارجي.
- الجماعة في حالة توازن مؤقت ، أي أنها تعيش استقرارا نسبيا وتغيرا من حين لآخر.

ومن تحليل هذه الخصائص نستشف تلك المجالات التي تهتم بالعلاقات التفاعلية و مختلف الظواهر النفسية و الاجتماعية التي تنتجها الجماعة من تواصل وتأثير وأدوار ومعايير اجتماعية...، كما أنها تهتم - هذا الذي يعنينا - ببناء المهارات وتغيير الاتجاهات لدى أفرادها؛ والذي يبين تواصل العلوم و التخصصات في رصد تأثير التفاعل في السلوك.

ثالثا: مفهوم التواصل البيداغوجي

إن الخاصية الأولى التي يحددها كورت تحيلنا إلى أن التفاعل عصب استمرار الجماعة، والذي يعني لب عملية التواصل ، فالعملية الديداكتيكية تقوم نجاعتها على تحقق الرغبات و الحاجات ؛ والمتأمل في ربط هذه العملية بمفهوم التواصل يصل إلى أن عملية التعلم ، لم تكن في الواقع ، عملية فردية خالصة تحدث في معزل عن أي تأثير من الغير، فهي نشاط قائم، في كثير من جوانبه ، على التواصل مع الطرف الآخر، من خلال التفاعل على مستويات مختلفة.

والظاهر، في تناول مفهوم التواصل ،أن له عناصر تشكل مكوناته ، والتي يقودنا تحليله إلى التالي :

- قيام أطراف فاعلة في التواصل البيداغوجي ، والتي تتعدى العنصر البشري إلى الوضعيات المجابهة.

- التواصل يتغي بعدا ، القصد منه نوايا، تحقيقها يتطلب الوضعية التواصلية ذات التأثير.

- الرسالة المراد تبليغها.
 - قيام التواصل على قنوات تعين على القصد منه.
 - سيرورة تفاعل بين أقطاب الوضعية ، والتي يكفلها سياق.
- عناصر تكوّن تعريفا، يرى في التواصل البيداغوجي كل شكل وسيرورة ومظهر يربط أطراف الوضعية بنية التأثير، عبر الخبرة والتجربة والموقف... (اسليماني، وآخرون ، 2005).
- إن هذا التعريف يشي بأهمية التواصل الحسي الذي له أهمية تتضافر إلى مجموعة الرسائل المتبادلة، والتي تقوم فيها اللغة بدور بليغ ، فأى إنتاج لغوي هو في حقيقته إنتاج لغوي لوضعية تواصلية ذاتية ومتفردة يضمن عناصر تشكل مكونات الوضعية التعليمية، حيث تصير الوضعية ركنا جوهريا بين متلفظ وملتقط في إطار ، له مكان وزمان.
- واللغة ، بهذا الشكل ، معين أساس لكشف التمثلات التي تكشفها الوضعية التعليمية/ التعليمية (وضعية المجابهة التكوينية) ، كونها أضحت عاملا رئيسيا في اكتساب الكفاءات ؛ وهي بذلك تكتسي أهمية جليلة- أي اللغة - ، ليس في كيفية بنائها، بل في تداولها بصورة سليمة تخدم النية من التواصل، حيث معرفة الشروط التي يتحقق فيها النسق اللغوي ، باعتباره ذا استعمال في السياق الاجتماعي.

رابعا: شروط التواصل السليم

لا ينحصر دور المربي في صياغة الرسالة، بل استحضار المتعلم في صورة مستقبل إيجابي، فانتظارات المتلقي وأهدافه وتمثلاته هي المنطق الفعلي لتبليغ الفكرة عبر القنوات الضامنة تجاوز القاموس الذي يصعب عليه ترجمة التمثلات الداخلية بخصوص موضوعها، هذا التجاوز الذي من شأنه التقليل من أزمة العلاقة في خطاطتها التي تجلي صلات أركانها ببعضها البعض ، وهنا تنكشف إعادة الصياغة للوضعية بطريقة تتوافق فيها تمثلات المتعلم إزاء الموضوع ، فتبرير الاختلاف في زوايا النظر ، يعطينا مسوغات تبين التفكير بطرق متباينة وعدم الاهتمام بنفس الأشياء ، وبالتالي نفي الطرح القائل بأن الاختلاف مرده إلى أن البعض على صواب أكثر من الغير .

ولعل ما يقف حائلا دون التعلم الحقيقي هو غلق باب التواصل، هذا الذي يحجب أسباب التعلم، كالتعلم الذاتي و تعلم التعلم و الفهم...،ومن أجل رفع المعوقات ينبغي الاعتماد على العمليات الذهنية وسيرورة التعلم الخاصة ، هذه التي من نماذجها التعلم المتمركز حول المتعلم وجماعة الصف الدراسي.

1- نموذج التعليم المتمركز حول المتعلم

الوضعية الديدانكتيكية هي محاكاة للوضعية الحية، والمتعلم يسعى إلى توظيف المعارف المتحصل عليها في وضعيات محكية تسمح باختبار صلاحية المقررات ذات الطابع العلمي ، والتي يعي المتعلم أهميتها في تكوينه الذاتي ، وبالتالي تقبلها ينهض على أهمية التواصل المنطوي على تحفيز المتعلم؛ ومن هنا تظهر أبعاد بيداغوجيا الكفاءات في أخذها بعين الاعتبار لطريقة التعلم ، والتي تفاضل مقارنة تتمركز حول المتعلم وإمكاناته بدل المادة و تعلماته السابقة، هذه المقاربة التي تعطى معنى لتعلم معرفة الفعل والتفكير عوض الانصباب حول المحتوى (جفايمي ، 2003).

وتعتمد هذه المقاربة على إعطاء الفرصة للمتلم لاكتشاف المسعى مرورا بجسر الخطأ الذي بات ضرورة بيداغوجية، وبالتالي يدخل دور المربي في إعداد المتعلم عبر وضعية تكوينية يكون التعلم الذاتي متاحا من خلالها ، وتكون في ذات الحين موجها لتصويبات المربي بخصوص ما وضعه كاستراتيجية تعلم.

إن هذه المقاربة تبرز الأثر الديمقراطي في العملية التعليمية ، والمتجلي في احترام الخصوصيات النمائية

أين يتمكن المتعلم من إفراز الطرائق الفعالة المبينة لآليات التفكير الفردي، فقابلية تطوير المؤهلات الذاتية رهينة تلك الحرية التي يظهرها التواصل.

2- وضعية المجابهة التكوينية

التواصل البيداغوجي في ضوء ذات الفرد التي تعتبره المقاربة بالكفاءات أصل المعرفة من خلال الوضعيات ، كونها أكثر مضارعة لما يحدث للفرد في تفاعله مع البيئة ، يقتضي النظر إلى العملية التعليمية/ التعلمية من زاوية أقدر على تفسير سيرورة التعلم وفق مرجعية ذهنية وخطوات

صار يصطلح عليها بالميتا معرفة؛ هذه النظرة التي تمنحنا إعادة النظر في المثلث الديداكتيكي بإدخال تغيرات تضبط العلاقات بين أركانه ، فالتواصل الأفقي بين المربي والمتعلم صارت له مرجعية تدعى بالوضعية التكوينية ، وهي وضعية تسمح للمربي بتغذية راجعة تفرضها العلاقة القائمة بين المتعلم ووضعية التكوين عبر توظيف موارده ، من خلال ما يمدّه الفعل في الوضعية.

إن التواصل في وضعية المجابهة يركز على التفاعلات وعلى التغذية الراجعة، فالمتعلم يفعل موارده ومعارفه الجديدة ، و المربي يسعى إلى تصويب وتعديل إستراتيجيته بما يناسب العمليات الذهنية؛ وهكذا يسمح التعديل في المثلث الديداكتيكي بتكوين شخصية حرة تتبنى مواقف ، هذا التكوين الذي تبرز فيه وضعية حل المشكلات كعنصر رئيس ، حيث تقدم هذه الوضعية جديدا اختلقته المجابهة، وفق شروط تتمظهر في مبدأ الانسجام، أين تحمل الرسالة البيداغوجية مقصدية، كما يلعب مبدأ التبادل المستمر دورا فعالا في تكوين اتصال عبر التغذية الراجعة، والتي تحدد الفارق بين الهدف و النتيجة، مع شرط الادراك الشامل لما يحس به كل طرف (روجيرز، وآخرون، 2005).

إن تحليل ما سبق الإشارة إليه يجرنا إلى الحديث عن قواعد الاتصال ، والتي تتمحور حول أساسيات ، لا وجود للتواصل إلا بها، فالوعي بالوضعية في حرية من خلال التبادل يضمن التعبير والفعالية، وعليه فالوضعية السليمة هي التي يراعي من خلالها المربي هذه القواعد، والتي توفر احترام الرأي و قبول الانتقاد؛ فاختلاف الرأي دعامة مهمة في عملية التواصل، وغيابها يحد منها، هذا الاحترام والقبول يمد أطراف الوضعية التعليمية بفرصة شرح وجهات النظر، وبالتالي إعادة مضمون الرسالة، والذي يدفع إلى التفاعل ، فالعلاقة بين فردين تقتض نشاطا متصلا واضحا ، يبعد كل تخوف أو سلطة من أجل تقبل الغير، وبالتالي تصويب الخطأ.

إن هذا المنطق يفسح المجال للوقوف على تلك التمثلات ، باعتبارها أفكارا وتصورات مسبقة تؤثر في العلاقة البيداغوجية، وفي سلوك طرفيها؛ ومهما كانت هذه التمثلات (قيم ، مفاهيم، سيرورات.....)، فإن تحليلها ينهض على جملة من الأبعاد:

- البعد الأول: يمثل الاتجاه الذي يعكس الدرجة والنوع في النزوع صوب الموضوع.
- البعد الثاني: يمثل المعارف المكتسبة حول الموضوع.

- البعد الثالث : ويهتم بالتمثل، ويحيل إلى فكرة نظام المحتوى ، حيث الوحدة المعرفية تقوم على نسق يعكس وضوح انبناء الفكر (الوافي ، 2005).

من هذه الأبعاد، تأخذ عملية التواصل بين المرسل والمتلقي مختلف التدخلات التي مصدرها التمثلات التي يعقلها كل منهما، فقد يبني المربي ثمرات عن النتائج التي ينتظرها، فتشكل لديه تأثيرات في التفاعل ، كما أن المتعلم يأتي بتمثلات ، تكون بمثابة الارتكاز الذي تنطلق منه العملية التعليمية/التعلمية، فتتدرج العملية من تمثّل إلى آخر، وهنا ينبغي حسابان تمثلات المتعلم في التواصل ، لأنها مصدر الخطأ الذي يسعى المربي دوماً إلى كشفه، هذا الذي يفسر توظيف عمليات عقلية غير منسقة، ووفق تراكمات غير متأكد من صحتها.

خلاصة:

إذا كنا نتفق على أن العملية التعليمية-التعلمية صارت تقتضي الارتكاز على التواصل البيداغوجي في ظل النظر إلى المتعلم على أنه لب هذه العملية، فإنه من النافع تحليل العلاقات التي تربط أطراف العملية تحليلاً ينفذ إلى تلك التصورات والتمثلات التي بات الاهتمام بها أولية قوية ، تقوم عليه المناهج الدراسية في تحقيق ما خططت من أهداف وغايات.

المراجع

- 1- اسليمان ، العربي ، وآخرون .(2005)، التواصل التربوي مدخل لجودة التربية والتعليم، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
- 2- الوافي ، العربي .(2005)، أي تعليم لمغرب الغد، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
- 3- جغاممي ، جامع.(2003)، سيكوسوسيولوجية التربية، أكادير، مطبعة الشروق.
- 4- روجيرز، ك، وآخرون.(2005)، بيداغوجيا الإدماج الإطار النظري ، إعداد وترجمة لحسن بوتكلاي ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة.
- 5- صليبا ، جميل .(1982)، المعجم الفلسفي ، بيروت ، دار الكتاب.
- 6- عيسوي ، عبد الرحمن محمد.(1974)، دراسات في علم النفس الاجتماعي ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.